

الغزالي وطريقته

في تربية الاطفال وتربيتهم

للاستاذ التامل عبد الوهاب أحمد عبد السلام

المدرس بالمدارس المتوسطة

مقدمة: وجد الامام الغزالي في عصر بلغت العناية فيه بالعلوم الدينية والعلوم اللسانية مبلغاً عظيماً، وانصرفت المهمة إلى تربية الناشئين تربية دينية، انصرفاً كعاد يطنى على كل شيء، حتى كانت العناية بالعلوم الأخرى كالمنطق، والفلسفة، والعلوم الطبيعية، مقسوداً بها تقوية الناحية الدينية.

ولقد بلغ من آثار تلك العناية، أن كثيراً من الحكام، كانوا يبذرون المساجد، ويحبسون الأوقاف لخدمة الدين الإسلامي، والعمل على ذبوع مبادئه وأمراره؛ وبنيت كذلك المدارس، لإيواء الأطفال الذين يتلقون حدود الشرع، وأحكام الدين، على أسانذة مرين، خصوصاً أنهم لتلك الغرض، وهذا (نظام الملك) وزير ملك شاه السلطان السلجوقي، بكاد يجمع مؤرخو الإسلام، على أنه أول من بنى المدارس في الإسلام، في أواسط القرن الخامس للهجرة لغرض نفسه؛ وكانت أشهر مدارس، المدرسة النظامية، التي بناها ببغداد سنة ٤٥٧هـ ورتب فيها العلماء، لدراسة العلوم الدينية، والعلوم اللسانية، التي يقصد بها خدمة القرآن الكريم، وبيان ما به من أمرار وحكم، وبلاغة في التعبير، وإعجاز في البيان، وقد كان من أسانذة تلك المدرسة، الامام أبو حامد الغزالي، وفي هذه المدرسة ذاع صيته، وطبع الناس باسمه، وأعجب به أهل بغداد، وصارت له المكانة السامية في مهنة التدريس.

فلا عجب بعد ذلك - إن كنا نرى ذلك الامام الجليل، في آرائه التي نمرضاها عليه يقصر بحثه على هذه الناحية الدينية، وقد وضع نظرياته وآراءه، على ذلك الأساس مقتبهاً من تجاربه الشخصية، ما يضيء الطريق للمربين بعده.

نعم قد تعرض للغزالي لكثير من الآراء الفلسفية، وجارى فيها أهل عصره؛ متقبهاً آراءهم، مقتبداً إياها في كثير من الموضوعات، ولكن في حدود ما كان يرمي إليه من تقوية

العقيدة الدينية ، لتكون قائمة على أساس من التفكير الصحيح ، لا يشوبها شيء من التقليد والضعف .

والامام الغزالي ، أحد قادة التربية في العصر الاسلامي ، الذين لم تزل آراؤهم في الوقت الحاضر ، موضع العناية والتقدير ، من رجال التربية الحديثة ، لذلك نجد أن كثير من آرائه في تربية الطفل خاصة ، يتفق مع مبادئ التربية الحديثة ، ومن يرد الموازنة ، فانه يستطيع أن يحكم بتقارب الأفكار ، ونشابه الأغراض ، مما يثبت أن لآرائه في التربية صدى قويا ، تأثر به رجال العصر الحاضر ، وإن أخذت التربية الحديثة ، أشكالا وصورا تبعا لتطور الحياة ، وتدرج الحضارة

وحجنتا في عرض آراء الغزالي هو (كتاب الاحياء) الذي يسطر به آراءه وطريقته في تهذيب الاطفال ، بأسلوب واضح لا تعقيد فيه ولا إبهام .

(٢) الغرض من التربية عنده

يرى الامام الغزالي ، أن الغرض من التربية ، إنما هو الفضيلة ، والتقرب إلى الله عز وجل ، ولذلك يقول في كتابه : « وعلى المعلم أن يبين المتعلم إلى أن الغرض من طلب العلم ، هو التقرب إلى الله عز وجل دون الرياسة والمباهاة » ويقول في موضع آخر : « .. وأن يكون فسد المتعلم في الحال تحمية باطنه وتحميله بالفضيلة ، وفي المآل التقرب من الله عز وجل » فقول تربي التربية الحديثة إلى أكثر من ذلك وهل تريد هذه التربية ، من الناشئ . إلا أن يتحلى بجملة الفضيلة ، وبشبه على كثير من الصفات الحسنة ؟ وهل يمكن التقرب إلى الله عز وجل بغير هذه الوسيلة ؟ وهي مع ذلك كله ، لا تطلب من الناشئ غير الأخلص في طلب العلم ، وتلقي الدرس ، بكل انتباه وجد ، دون نظر إلى مباهاة الوظيفة ، أو جاهد المال .

لذلك كان من واجب المعلمين أن يلتفتوا الناشئين ذلك الغرض ، ويوجههم إليه ، حتى يقبلوا على العلم وأنفسهم مطمئنة إليه ، تحذوم الرغبة فيه ، إلى الزيادة منه ، والاستمرار عليه ، وبذلك تحميا في نفوسهم ، قوة الأراء ، وتسمو لديهم ، مطالب الحياة ، فلا يقدم يأس ، بعد التفرغ من طلب العلم ، عن القيام بأعباء الحياة ، بل يجهدون من قوة إرادتهم وسمو أغراضهم ، ما يدفعهم إلى كسب العيش من طريق شريف ، يحفظ عليهم حياتهم ، وكرامتهم

ولو أن التربية عندنا ، كان مدارها ذلك التوجيه الحسن ، وغرس بذور النخوة والاعتماد على النفس والاستهانة بما دون الشرف والكرامة ، رأينا نتاجا مزهرا ، تنشعب بقوته الإعمال

الحرمة . نعم : ولما رأينا ذلك التهافت المزرى على الوظيفة ؛ وما نجح وراءها من اهتمام العقول ، وفساد الأخلاق

(٣) رأيه في تاديب الطفل

يرى النزلى وجوب العناية بتربية الطفل من مبدأ ولادته ، ومراقبته في أول نشأته وهو في هذا يقول : « إن العيب إذا أعمل في بدء نشوئه ، خرج - غالباً - ردىء الأتلاق ، كذباباً ؛ حسوداً ، سروفاً ، غاماً . وإنما يحفظ عن ذلك بحسن التاديب »

وذلك لأنه يرى أن الطفل بطبيعته يولد خلواً من كل شيء ، وأنه قابل لكل شيء بصورة ، فإذا عمل إهمال اليهايم وترك له الجلب على الثارب ، وجدل فريسة لفرياء السوء فإنه يخرج ناقص الخلق ، معيباً ، مشيناً ، تنخطفه الشرور وتغذف به في غمامات الجهالة ، فيكون وبالاً على نفسه ، وبالاً على أهله ، وبالاً على وطنه ؛ لذلك كانت المبادرة بمراقبته ومراقبته في أول نشأته ، من أوجب الواجبات ، لتنشئه تنشئة سالحة ؛ ولتحيلولة بينه وبين عوامل الفساد ، التي قد تحيط به وتؤثر في طباعه .

وليست هذه المراقبة والمراقبة ، مقصورة على المدرسة ، بل لا بد من اشتراك المنزل معها في التبعة إن لم تكن التبعة الأولى موجهة إلى المنزل ، فذلك يجهد النزلى بوجه نصالحه وإرشاداته إلى الأبرين ، ثم ينتقل إلى المعلم ، فيزوده بكثير من الوسائل والمقرب ، ولذلك كان لا بد من تقسيم مراحل التربية إلى قسمين كبيرين . القسم الأول : التربية المنزلية ، والقسم الثاني : التربية المدرسية .

التربية المنزلية

والنزلى يرى بعد ذلك ، كيف تسكون صيانة الآباء لابنائهم ، وهم في حجورهم قبل أن يعمد بهم إلى معاهد العلم ، ويرسم لنا خطة التربية المنزلية . التي هي عماد التربية الصحيحة ، وأساس الإصلاح وبدونها لا تفلح التعاليم المدرسية مهما كانت والوسائل التي يراها مؤدية إلى نجاح التربية المنزلية ، هي كما أحصاها ك. مؤثر اعتباراته في كثير من الموضوعات

١ - أن لا يستعمل الوالد في حضانه طفله ، وإرضاعه ، إلا امرأة سالحة متديبة ، وهو بذلك يشمرنا بالأثر البالغ الذي تتركه المرشعات في نفوس الأطفال إذ عليها تتوقف حياة الطفل المستقبلية . وهي التي تغذيه بلبانها ، وتخضمه لكثير من طباعها . فليقتبه الآباء إلى ذلك جيداً ، وليكونوا على حذر دائماً إذا قضت الضرورة عليهم بالالتجاء إلى المرشعات وليختاروا منهن الصالحة المتديبة ، وفي تلك الإشارة ما ينشئ عن الأسهاب في ذلك الموضوع

٢ - إن أول ما يذاب على اللطف من الصفات ، هو الشرة إلى الطعام ، فينبغي للوالد أن يؤديه فيه مبيتا ما يجب عمله أثناء الأكل .

٣ - ألا يجب إليه الزينة ، وأسباب الرضاية ، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر ، فهلك الأبد .

٤ - أن يحفظه عن الصبيان الذين عودوا بالتنعم والرهاية ولبس الثياب الفاخرة ؛ ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء الخنزير ، وأن الرجال يستنكفون منه . ويكرر ذلك عليه .

٥ - ومهارة أي فيه من مضائل التمييز ، فينبغي أن يحسن مراقبته ؛ وأول ذلك تاهور الحياة ، فإنه إذا كان يحشتم ويستحي ، ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لأشراق نور العقل عليه ، وهو من هذه الناحية ، لا ينبغي أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحبائه وتمييزه .

٦ - وليسكن الأب حافظا هيبة الكلام معه ، فلا يوبخه إلا أحيانا والام يخوفه من الأب وتزجره عن القبائح .

٧ - أن يمنع كثرة الكلام ، ويعدو حسن الاستماع ، من هو أكبر منه ، معها فكلم .

٨ - أن يمنع مخالطة من يجري على لسانه شيء من السب ، والتعلق ببعض الأقول .

٩ - وينبغي ألا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصيام في بعض أيام رمضان وذلك وصايا جديرة بالاعتبار ، في التربية المنزلية ، ومدارها توجيه الناشئ ، توجيهها حسنا ، وإخضاع تصوراته وأعماله ، إلى ناحية الخير ، ومراقبته في كل عمل من أعماله ، حتى يستطيع الحكم في مستقبله ، على بعض أشباه القبح أو بالمحسن .

التربية المدرسية

أول ذلك التمهيد الحسن ، الذي مهد به النزالي حياة الطفل ، في نصحته السابقة ، يمكن ذلك الطفل ، بعد دخوله المدرسة ، من تقدير ما يلقي عليه من النصائح والآداب ، ويوجهه فيه الميل إلى حسن الاستماع من المعلم ، لأن ما زوده به أبوه من الآداب ، وصالح العادات كقيل يخلق هاتين الصفتين فيه وهما : « تقدير النصيحة وحسن الاستماع » ، وفيها وسدهما كل الضمان لنجاح المعلم في موته المفاة على عاتقه ، من أخذ يد الناشئ ، إلى ما فيه هداية قلبه ، وتنقيب عقله ، وترقية عوامقه ، وترقيق إحساسه ، وصالح شأنه .

ولنتنظر بعد ذلك ، إلى الأمام النزالي ماذا هو فاعل بالناشيء ، وقد خرج من المنزل ، وألقى به أبواب المدرسة ؟ أهو يحقق ذلك الغرض من التربية الذي ذهب إليه ؟ وما هي الوسائل التي يراها مؤدية إلى تحقيق ذلك الغرض ؟

أما إذا أردت أن تعرف الأجابة عن ذلك ، فاستمع لما يقول الإمام في ذلك موضحا

محتاجه الدوامى .

١ - . . . « تم يشتغل في المكتب ، فیتعلم القرآن ، وأحاديث الاخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم لينتسب في قلبه حب الصالحين ، ويحفظ من الإشتغال التي فيها ذكر العشق وأعله ، فان ذلك ينرس في قلوب الصبيان بذور النماء »

٢ - « إذا بلغ الوليد سن التمييز ، وجب على المعلم أن يأخذ به حدود الشرع وأوامر الدين ، ولا ينبغي أن يسامح في ترك الطهارة ، والعلاقة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان »

٣ - « إذا وصل الغلام سن البلوغ ، صح للربي أن يعلمه أسرار الشريعة والآداب التي أخذ بها من قبل »

أتراه بعد ذلك ، قد بعد عن الفرض من التربية ؟ لا . بل إنه يضع أمام فترك ، دروسا حافظة كهيئة بتفريج نائى . . . تقي بار . كل همه التقرب إلى الله تعالى . وإليك مجمل هذه الدروس : (١) - تعليم القرآن وتحفيظه . (٢) تاريخ السلف الصالح وذكر أحوالهم (٣) - تلقينه من الشعر ما ليس له اتصال بالعلمة والمجون (٤) - أخذ به حدود الشرع وأوامر الدين . ومراقبته حين البلوغ وذلك منهج تتحقق به التربية البدنية لا عمالة . ويجب أن نسود تماثيا هذه لروح الطيبة . التي نلحها في صور هذا المنهج .

ولم يقف الامام عند هذا الحد من التربية . بل إن شدة حرصه على تمتع النائى ، . فقط كبير من الحرية في العمل . وإعماله فرصة يستجيم بها فوته . ويسترد فيها نشاطه . إن حرصه على ذلك . قد جعله ينصح المعلم ألا يرهقه في التعلم . وألا يدخر جهدا في تنشيط جسمه . وإراحة عقله . وذلك بالرؤية البدنية . وفي ذلك يقول « ينبغي أن يتوخذ له بعد الانصراف من المكتب . أن يلعب لعبا جميلا . يستريح إليه من تعب التعلم . فأن منع الصبي من اللعب . وإرهاقه يمت قلبه . وينقص عليه عيشه . حتى يطلب الجلبة في الغلام منه »

ولا نفلن أن ذلك المنهج . هو كل ما كان يوصى به النزالي في تربية الطفل ، أو بالأحرى كل ما كان معمولاً به في عصره ؛ بل إنه يصور لك ، مدى عناية الأقدمين بالتربية البدنية وبين لك أن عنايتهم بدروس الدين (وأساسها القرآن) كانت تفوق عنايتهم بالمعلم الأخرى . ككتفون الكتابة ، وتجويد الخط والحساب . وعلم تقويم البلدان . كل ذلك . كان مما لا يعنى بها أهل ذلك العصر الذى عاش فيه النزالي . والذى حدا به إلى قصر بحثه على المراحل السابقة . هو كما قلت لك شدة الحرص على القرآن ودروس الدين والعناية بها .

عبر الوهاب اصممر عبر الصوم